أسر وموت (1944 ـ 1948)

من هو إذن عدوي؟
هل من يطعمني هنا في الزنزانة عدوي؟
إنه حتى يكسوني ويقدم لي السكن، فالزنزانة ثوبي الذي خاطه
لي. هكذا أسأل نفسي: من يمكنه إذاً أن يكون عدوي؟

كارل شميت، في الأسر الخلاص

سجل العقيد هانسن يوم 20 تموز 1944 في يومياته وهو في باريس: «السفر إلى القائد الأعلى». ليس سبب السفر معروفا، وكذلك رد فعل نيدرماير المباشر حيال نبأ الاعتداء الفاشل على هتلر. كما لا نعرف إلا القليل حول إقامته بين 8 و 22 آب عام 1944 في برلين. كان هاوسهوفر، الذي انتسب ابنه ألبرشت إلى دائرة المتآمرين، قد أرسل خلال هذه الأسابيع بصورة مؤقتة إلى معسكر الاعتقال في داخاو. وبعد إخلاء سبيله عالجه طبيا شقيق نيدرماير فريتز. لكن أمرا واحدا يسمو على أي شك، هو أن أحداث 20 تموز وانتقام النظام النازي الفظيع من المتآمرين كانا بداية درب آلام الجنرال، الذي استمر أربعة أعوام ولم ينته إلا بموته.

محادثات مصيرية

طلب القاضي الأعلى لدى القائد العام غرب يوم 29 أيلول 1944 قدوم

نيدرماير إلى مكتبه[1]. بدأت جلسة التحقيق الأولى مع الجنرال في العاشرة وأربعين دقيقة في كوبلنز، حيث أتيحت له الفرصة الحديث بين الساعة 13 و 14،45 مع اثنين من ضباطه هما العقيد هانسن والمقدم بالم، ثم تواصل التحقيق واستؤنف في 29 و30 أيلول. في الأول من تشرين الاول تم إحضار نيدرماير إلى قيادة الجيش العليا في برلين، رغم محاولة القائد الأعلى لدى قيادة الغرب إغلاق الاستجواب دون مشاركة برلين. وفي مطلع تشرين الثاني تلقت أركان نيدرماير في سيمرن من إدارة سجن القوات المسلحة في تورجاو نبأ إرساله إلى حصن تسينا المخيف الواقع خارج المدينة، وأن محكمة شرف قررت طرده بطريقة شائنة من صفوف الجيش الألماني، وأنه ينتظر في زنزانته ببذته العسكرية، ولكن دون رتب وأوسمة، إجراءات التقاضي أمام محكمة الشعب. وبما أنه لم يحكم بعد، فقد تركت له بعض الامتيازات، كترك الباب غير مقفل في زنزانته المنفردة، التي كان يلعب الشطرنج مع نفسه فيها. فما الذي حصل؟.

فقد نيدرماير السيطرة على نفسه بسبب انطباعاته وأحاديثه خلال عودته إلى الجبهة الغربية. في 19 أيلول عام 1944 كتب الرائد هولفيلد، رفيق سفر الجنرال، تقريرا كتابيا حول تصريحاته أثناء الرحلة بالقطار، يقول إنه صرح يوم 27 أيلول في حضور هولفيلد واثنين آخرين من أركانه هما قائد الفرسان الأمير فون ريهبيندر والعقيد كوربر بما يلي: «سياستنا خاطئة، وكان يجب أن لا يكون هناك منذ عام 1933 غير سياسة واحدة هي السير سويا مع روسيا، أما شكل الحكومة فليس له أي دور. لكن الحرب أعلنت على روسيا منذ كتاب «كفاحي»، وهذا خاطئ من أساسه، إنني أقول هذا الرأي في كل مكان منذ أعوام. وهو أيضا رأي الجنرال كوسترينج». ثم أضاف نيدرماير:

1. انظر حول محاولات إطلاق سراح نيدرماير من معتلقه في تورجاو تركة ألبرت هانسن في الأرشيف الاتحادي والأرشيف العسكري. مرجع سابق.

«ونحن، الجنرال كوسترينج وأنا، الوحيدان اللذان نستطيع اليوم أيضا الذهاب إلى هناك». لم يشك أحد من المستمعين في أنه قصد بذلك الاتحاد السوفييتي.

في الثامن والعشرين من آب، تحدث نيدرماير مجددا لدى تناول طعام الغداء مع ضباط أركانه في فيردان بطريقة نقدية تحقّر سياسة هتلر وتسخر منها. كان يرى الآن انحلال الجبهة الألمانية في كامل أبعادها المأساوية، ويقارن الوضع مع خريف عام 1918، الذي عاشه هو نفسه كمقدم شاب في المنطقة ذاتها: «لقد قمنا آنذاك بانسحاب منظم، أما الآن فنحن في حالة فرار عشوائي». وعندما بلغ الكلام أحداث 20 تموز 1944 غضب نيدرماير بسبب معاملة المتآمرين وأسرهم، وقال: «لقد اعتدت بعض الشيء من أيام روسيا على تصرفات كهذه. إلا أن ما يجري اليوم عندنا مخجل ومخيف ولم يحدث هناك».

لكن الجنرال أدلى بأخطر تصريحاته يوم 3 أيلول، عندما أوضح أن كل نقطة دم يستمر سفحها في هذه الحرب تذهب هدرا. حين رد هولفيلد أن على ألمانيا مواصلة القتال، حتى إذا أدى ذلك إلى اندثارها، أجاب نيدرماير بهياج شديد: «عندما تتحدثون عن استمرار القتال حتى الاندثار، فإن هذا جريمة. إن شعبا عظيما له إنجازات ثقافية كالشعب الألماني لا يستطيع ولا يجوز أن يندثر. لكن قيادته يمكن أن تتغير. لا يجوز مطلقا أن يندثر الشعب الألماني بسبب قيادة أو برنامج. وكي لا يندثر يجب أن تذهب القيادة. لقد قال الفوهرر أنه يقاتل من أجل شعبه فقط. إذا كان لا يستخلص أية عبر مما يجري، فسأكون شخصيا أول من يعمل ضده».

بالنظر إلى الوضع العسكري الميؤوس منه، وإلى هجمات الحلفاء الجوية المتواصلة، وذكرى تشرين الثاني من عام 1918 المحبطة، كان نيدرماير مستنزفا ومنهكا، وفقد القدرة على إلقاء نظرة إجمالية صائبة على

الوضع، بينما كان الضباط الشبان، الذين عادوا معه من برلين، تحت تأثير الاعتداء الفاشل على هتلر، وكانوا أكثر تأثرا بالنظام العقيدي النازي مما أراد نيدرماير أن يعتقد، فلم تكن تشدهم إليه علاقة الثقة نفسها التي كانت قائمة بينه وبين ضباطه في الفرقة القديمة.

بعد أن أخبر نيدرماير صبيحة يوم 28 أيلول عام 1944 لأول مرة بتقرير هولفيلد، قبل أن يخضع للاستجواب، حاول بالتعاون مع العقيد هانسن والمقدم بالم، اللذين كان يثق بهما، صياغة خط دفاعه، وكتابته على الورق. وقد حدث كل شيء على عجل. بعد أن استغرقت طباعة النص على الآلة الكاتبة وقتا طويلا جدا، دون أن ينجز إلا قسم منه فقط، تقرر كتابة الباقي بسرعة باليد. لقد أدلى نيدرماير بأقواله أمام شهود، وكان كل شيء يتوقف الآن على تلفيق مضمون مغاير قدر الإمكان لمضمون تقاريره.

اعترف نيدرماير أنه سافر مع هولفيلد بالقطار من بوتسدام إلى الغرب، وتحدث خلال الرحلة عن روسيا، لكنه أنكر بإصرار التصريحات المنسوبة إليه: «عندما تنزع المعطيات من سياقها، تعطي صورة خاطئة كل الخطأ». الواقع أنه قال تصورات سبق له أن صرح بها مرات كثيرة في الماضي: «لقد أيدت دوماً تعاون الشعبين الألماني والروسي، أعظم شعبين في أوروبا. وبذلت دوماً الجهد من أجل التعاون بين روسيا وألمانيا، على أمل أن يكون في البلدين نظامان سياسيان يجعلان هذا التعاون ممكنا. لكن البلشفية لم تبد لي مطلقا مثل هذا النظام، بينما كان التعاون العسكري العابر بعد الحرب العالمية الثانية مرتبطا بأهداف محددة، فهو كما يقال تحالف بين أعمى ومشلول، هدفه الحد من ضغط قيود فرساي علينا. لم أغلق عقلي مطلقا أمام معرفة أخطار البلشفية علينا وعلى أوروبا». هنا ينقطع الدفاع المطبوع على الآلة الكاتبة.

أضاف المرافق العقيد هانسن في ساعات ظهيرة يوم 28 أيلول 1944

بخط يده: «لفت النظر عام 1933 حجم التحريض السياسي والتسليح السوفييتي ضد ألمانيا بحجة التصدي لبرنامج الفوهرر، وهو ما حذرت منه مرارا وتكرارا (وكذلك فعل كوسترينج)». أما ملاحظات هولفيلد إلى كوسترينج ونيدرماير وصلاتهما فهي لا تعكس ما قيل بصورة صائبة. وقد حاول نيدرماير إعطاء الخبر منحى آخر: «أؤكد بصدق أنني عبرت في وقت ما عن فضولي حول الطريقة التي سيتصرف الروس بها إذا ما وقعت أسيرا لديهم، فربما حاسبوني بسبب قيادة الوحدات الشرقية، لكنني أعتقد أيضا أنهم سيعاملونني بتهذيب، نظرا لمعارفي هناك، الذين لا زالوا أحياء.

غير أن أخطر ما في الأمر كان نقد نيدرماير لهتلر وتهديدة الغاضب ضده. لم يبق هنا غير إمكانية واحدة أمام نيدرماير جسَّدها قوله: «أرى من واجبي إنكار هذا الكلام، لأنه مجرد افتراء وقح وحقير». وأعلن أنني قلت: «أن هدف ألمانيا العظيم يكمن في صراعها من أجل بقائها. إن شعبا من سبعين مليون لا يمكن أن يندثر في سنوات قليلة، وعمل دوماً ضد الدعاية المعادية، التي تطالب الألمان بالانفصال عن قيادتهم».

كيف كانت في الواقع علاقة نيدرماير برجال العشرين من تموز؟. لماذا كان هائجا وخائفا إلى هذه الدرجة بعد زياراته إلى برلين وميونيخ، رغم مرور خمسة أسابيع على الاعتداء؟.

نيدرماير و 20 تموز 1944

زعم نيدرماير في تصميم دفاعه المكتوب أن هولفيلد» شوه «ملاحظاته حول 20 تموز 1944، فهو لم يعبر عن أي تعاطف مع المعتدين، بل قال: «هذه مأساة مخيفة تؤكد وجهة النظر القائلة إن الأركان العامة الألمانية تفتقر إلى تربية سياسية». كما أنه لم يصف السلوك المتبع ضد أعضاء المؤامرة بـ«المخجل والمعيب»، وأكد بالأحرى: «أننا طبقنا بهذا السلوك ضد المتآمرين تشبه ما كان سائدا في حينه في روسيا». ثم ادعى أنه أضاف: «إن

السلوك المعتمد ضد الأسر قاس ومأساوي، لكنه مفهوم وصحيح بمنظار الدولة السياسي». بعد أسابيع من هذا، كتب من زنزانته في سجن تسينا إلى شقيقه ريتشارد رسالة كان يعلم أن إدارة السجن ستقرؤها، قال فيها: «من الجنون إزاحة قيادتنا، ولن يكون لها معنى غير الفوضى والهزيمة، بغض النظر عن الموقف الذي يتخذه بعضهم من بعض مظاهر زمننا الراهن».

إن محاولات نيدرماير اليائسة، التي قام بها بعد اعتقاله في سبيل إنقاذ رأسه من حبل المشنقة، يمكن أن تفسر سلوكه الحقيقي من أحداث 20 تموز. ليس هناك، لشديد الأسف، غير وثائق قليلة مكتوبة بقلم نيدرماير حول استجواباته الأولى يوم 28 أيلول 1944، يمكن أن تقام علاقة بينه وبين 20 تموز والمؤامرة ضد هتلر ـ وهي كثيرة المعاني. هكذا أجاب في الأول من أيلول على رسالة من كارل فون شوفينيجن تلقاها يوم 5 تموز بعدد قليل جدا من الأسطر، وقد وقع العشرون من تموز، كما وقعت أسفار برلين وميونيخ والعودة إلى الجبهة المتداعية، بين الرسالة والرد. كتب نيدرماير: «عزيزي السيد فون شوفينجن!. لا أدري إن كنتم تعرفون ما يحدث بدرجة تكفي لأن تفهموا لماذا وصلتني رسالتكم التي أشكركم كثيرا عليها، بعد شهر إلي، ولماذا لم أرد عليها إلا اليوم. إنني لا أملك للأسف ما يكفي من الوقت لإبلاغكم بذلك. كما يبدو لي أن من غير الحكمة فعل ذلك».

ثمة إشارة غائمة من هذا الوقت تدل على سلوكه. استغل نيدرماير، شأن ضباط ألمان آخرين، ساعات فراغه للقيام بجولات على مكتبات الكتب القديمة في باريس. وكان قبل عام من ذلك شاهد عرس مرافقه المقدم بار في سيليزيا الدنيا، والآن كان نيدرماير، الذي لم يرزق بأطفال، إشبين هاجن، ابن وليد بار البكر، وأهداه طبعة نفيسة أعدت في باريس من أغنية النيبيلونجن طبعت بالألمانية العليا الوسيطية وازدانت بشريط أحمر فخم على طريقة القرن التاسع عشر.

وكانت الدعاية النازية لا تتعب من تمجيد «الولاء النيبلونجي» والمطالبة به في حقبة الحرب الأخيرة. لكن هدية نيدرماير لم تتضمن المطالبة بالصمود بأي ثمن، بل ذكّرت الطفل بمقطع من المغامرة التاسعة والعشرين يرفض هاجن فيها إطاعة كريمهيلد: «مثلما لقن هاجن كريمهيلد درسا ورفض أن يقف لها». هذا المقطع الغريب من النص، الذي اختاره نيدرماير، يحرض على العمل بروية ودون خوف. وهذه الأبيات من الملحمة لا بد أنها كانت تعني الكثير بالنسبة إليه :

«كم مرة ينجح امرؤ في التصرف دون خوف
ولكن عندما يقف كصديق بصداقة إلى جانب أصدقائه
ويكون حكيما إلى درجة أنه يتصرف بطريقة مغايرة
فإنه يمنع بحكمته وقوع الضرر الذي يتسبب به كثير من الرجال»[2].

كان نيدرماير يعرف أكثر رجال العشرين من تموز أهمية. فقد تسبب شتاوفنبرج في تعيينه قائدا لفرقة المشاة 162 ـ ترك ـ، وكانت الأحاديث بين الرجلين تجري في معهد الجامعة التابع لنيدرماير، وكان الرجل يزوره في أركانه في ميروجورود، ويلتقيه أيضا في المقر الرئيس براتسنبورج، حيث استنتج مرافق الجنرال وجود تفاهم روحي خاص بينهما[3]،

وجدت الحرب مزاعم متفرقة تقول إن شتاوفنبرج فكر باستخدام وحدات المتطوعين، التي كان قد اقترح تشكيلها، ضد هتلر[4]، فقد عرّج كارل فون شوفينجن على إمكانية «الاستخدام الداخلي الألماني للفرقة» في دراسته التي وضعها بتكليف من مكتب الأبحاث التاريخية العسكرية في فرايبورغ عام 1973 بعنوان «ريتر فون نيدرماير والفرقة التركية»، وقال: «أما

2. كتب نيدرماير نص العصر الوسيط كإهداء في الكتاب، الذي تحتفظ به الأسرة بار إلى اليوم.
3. انظر الوثيقة السابعة من الوثائق المختارة.
4. كارل ميشيل: شرق وغرب. دعوة شتاوفنبرج، ص 241.

أنه كانت لدى العقيد ستاوفنبرج خطط واسعة بخصوص الفرقة التركية، التي كان يريد استخدامها في المقاومة الداخلية، فهو أمر تؤيده الواقعة التالية: «عندما كنت في صيف عام 1943 في نويهامر مكلفا بتقديم مداخلة أمام الجنرال نيدرماير، عرض الأخير صورة واقعية لمجمل الوضع العسكري - السياسي، وقال حرفيا: تستطيع فرقتنا العمل بطريقة مختلفة أيضا، أعني العمل في الداخل، في ألمانيا. وطلب إلي أن أقول له بمن من ضباطها يمكنه أن يثق عندئذ»[5].

ثم أضاف شوفينجن في مذكرته قائلا: «كان واضحا أن استخدام الأتراك داخل ألمانيا، في برلين مثلا، كان ممكنا، لافتقارهم إلى أي نوع من الارتباطات أو المعوقات الداخلية، لكن هذا الأمر كان يتوقف على تصميم قادتهم من الضباط الألمان. وقد فاتحت مترجم اللغة التركية الأول في الفرقة، الملازم الأول جيرهارد تسايتر، بالأمر، بسبب التطابق الواسع في أفكارنا السياسية، الذي كان يسمح لنا بإبلاغ الجنرال بنتيجة حوارنا، إلا أن الفرقة أمرت فجأة بالانتقال إلى إيطاليا، مما وضع حدا لإمكانية استخدامها لصالح المقاومة».

اعتبر هانس فون هيرفارت، مؤتمن شتاوفنبرج وأمين سر الجنرال كوسترينج، هذا الافتراض مستحيلا، ونفى أن يكون شتاوفنبرج أو نيدرماير قد فكر في أي وقت باستخدام الفرقة التركية في صراع داخلي ألماني. وكان هيرفارت قد زار الفرقة صيف عام 1943 في نويهامر بصحبة كوسترينج وراقب تدريبها. حسب انطباعه، كان يجب أن يكون واضحا لأي ضابط أن الفرقة لا تستطيع خوض أي اشتباك ناجح مع وحدات ألمانية، وخاصة منها وحدات الـ إس إس. وحتى إذا كانت قادرة على القتال، كيف سيتم نقلها من سيليزيا الدنيا إلى برلين؟.

5. الرجع السابق، ص 7.

من المؤكد على كل حال أنه كانت لدى نيدرماير خلال إقامته في نويهامر عام 1943، صلات بشخصيات أخرى من رجال 20 تموز 1944. وعلى سبيل المثال، فإن جنرال المقر العام للجيش، جنرال المدفعية إدوار فاجنر، كان بافاريا وصديقا مقربا من نيدرماير، التقى به مرة واحدة على الأقل خلال تدريب الفرقة في صيف عام 1943، وتحادث معه طيلة المساء عن الوضع. وبعد ثلاثين عاما، استخلص شوفينجن من هذا اللقاء: «يستطيع المرء التفكير بالمعنى الذي يمكن للقاء أن يكون قد جرى فيه، إذا ما ربط بين تصريح نيدرماير المذكور أعلاه وبيّنت الدور الحاسم الذي لعبه فاجنر في عملية العشرين من تموز». من المعروف أن الجنرال اختار أن يقتل نفسه يوم 23 تموز عام 1944.

التقى نيدرماير عام 1943 مرة واحدة على الأقل مع الأمير فون شولنبرج، السفير الألماني السابق في موسكو. يخبرنا كونراد بار، أمين سر نيدرماير: «أن الحديث المفعم بالحيوية في فندق آدلون دار حول محاضرة شولنبرج التي كان قد ألقاها آنذاك بين يدي هتلر، الذي «رفض جميع نصائح هذا الديبلوماسي الخبير عن روسيا». إن الطريقة التي تعامل النظام بها مع المتآمرين وأسرهم لا بد أن تكون قد أثارت نيدرماير، خاصة وأن البرشت هاوسهوفر كان من المتآمرين، وأن كارل هاوسهوفر مكث أسابيع عديدة في معسكر الاعتقال بداخاو. لذلك ليس ثمة من مسوغ للشك بوفاء هولفيلد، التي تقول إن نيدرماير صرح يوم 28 آب 1944: «لقد اعتدت على شيء من هذا، عندما كنت في روسيا السوفييتية، إلا أنه لم يوجد هناك شيء مخجل ومخيف كهذا الذي يحدث عندنا».

مع ذلك: رغم تقدير نيدرماير لشتاوفنبرج الأصغر سنا منه بكثير، ورغم التعاون في تأسيس الفرقة التركية 162، وتصريحات نيدرماير النقدية حول النظام النازي، فإنه ليس هناك أي إثبات يؤكد معرفته بالمؤامرة، أو موافقته عليها، أو دعمه لها. صحيح أنه حذر منذ 1943 مرارا وتكرارا من

سياسة هتلر الشرقية، وأنه أطلق في أيلول من عام 1944 تهديدا غاضبا على مسمع من هولفيلد وغيره من صغار الضباط قال فيه: «إذا لم يستخلص العبر من ذلك، فإنني سأكون أول من يقف ضده شخصيا». إلا أنه يوجد ثمة فروق أخلاقية وسياسية بين التحذير والتعارض والمقاومة، وليس هناك وثيقة واحدة تؤكد اشتراك نيدرماير الفاعل في المؤامرة ضد هتلر. أم أن الأمر كله كان خلاف ذلك؟.

فارس أحمر؟

هل كان نيدرماير تروتسكيا؟. هذا السؤال طرحه مؤرخ على سامعيه الحائرين من الألمان، قبل أن يلفت أنظارهم إلى كتاب صدر عام 1982 في لندن بعنوان «سر ترجاو، كيف فشلت مؤامرة قتل هتلر؟»، يزعم أن الجنرال نيدرماير، مؤتمن هانس فون سيكت وصديق كارل هاوسهوفر، وقائد بعثة أفغانستان الألمانية وضابط ارتباط جيش الرايش مع موسكو كان شيوعيا ومقاوما وعميلا سوفييتيا ضد هتلر والرايش الثالث، وأنه كان على صلة وثيقة مع شخصيات قيادية في المقاومة العسكرية.

يذكر الغلاف اسم ياكوب كيرستن، الشيوعي الهولندي من مدينة تسوبفن الصغيرة الواقعة على بعد كيلومترين من الحدود الألمانية، كشريك في تأليف الكتاب ورجل ثقة وشاهد على العصر. وقد انتقل بعد الحرب العالمية الثانية إلى إنجلترا، وزعم أنه عمل في نهاية الثلاثينات من أجل منظمة سرية شيوعية لها اسم حركي هو «حافة الماء»، قال إن جذورها كمنت في مجموعة يسارية خاصة، ساعدت خلال الحرب العالمية الأولى الفارين من الخدمة ودعمت البلاشفة بقوة بعد ثورة أكتوبر عام 1917.

أما العقل السياسي والقوة الدافعة لـ«حافة الماء»، فلم يكن خلال الرايش الثالث أي أحد آخر غير أوسكار فون نيدرماير، الذي أعاد النظر في بنية المنظمة خلال الثلاثينات، وأرساها على مبدأ «الخلايا» المنفصلة بصرامة

بعضها عن بعض، وقادها، فكان أعضاء المنظمات يعرفون فقط أسماء وعناوين الأشخاص الذي هم على صلة مباشرة معهم. حسب عرض كيرستن، عملت «حافة الماء» في شمال ألمانيا أساسا، لكنها كانت على صلة مع هولندا والدنيمارك وإنجلترا. أما مقابلته الأولى مع نيدرماير في شباط من عام 1939، فتركت انطباعا عميقا في نفسه: «إنه رجل في الخمسينات ـ رجل متوسط القامة عالي الرأس، له أنف مدبب وقسمات حازمة ـ رجل عالي الذكاء وذو شخصية قوية، متشكك قدر ما هو مثقف. وكان كذلك جنديا»[6].

قال كيرستن إن نيدرماير تنبأ خلال لقائهما الثاني بعد قرابة ثلاثة أشهر، في أيار من عام 1939، بنشوب الحرب العالمية الثانية، وتوقع أن ينقض هتلر على الاتحاد السوفييتي وأن يمنى الألمان بالهزيمة. أما محاولات الشريحة العليا الألمانية من اليونكر لفك حلفهم مع هتلر فإنها ستفشل، وستنفجر الثورة في ألمانيا نتيجة الهزيمة. وذكّر نيدرماير، على حد قول كيرستن، أعضاء «حافة الماء» أن من واجبهم خدمة الاتحاد السوفييتي.

يزعم كيرستن أن لقاءه التالي مع نيدرماير تم في نيسان عام 1943 في برلين، وأنه أمضى الليل في منزل الجنرال في شارع هاجن، ثم رافقه سيرا على الأقدام من الغابة الخضراء إلى شارع دافوزر رقم 1 إلى شامارجندورف، حيث جرى لقاء سري حضره أعضاء من المؤامرة ضد هتلر، حضره عدا نيدرماير من الجنرالات الأشخاص التالية أسماؤهم: الجنرال باول فون هازه، قائد مدينة برلين، الجنرال إيريش فيللجيبل، رئيس إشارة لجيش الذي كان على صلة مع سيكت منذ 1916، وهينيج فون يرشكوف، رئيس أركان مجموعة الجيش وسط، وأخيرا العماد إرنست يانيكه قائد القوات الألمانية في القرم. وكان هناك إلى جانب الجنرالات العقيد سيزار فون هوفإيكر، إبن

6. ياكوب كيرستن / جيمس ماكليلان: سر تورجاو، ص 20.

عم شتاوفنبرج، وألبرشت هاوسهوفر، وأخيرا الرائد كارل جراف شفيرين فون شفاننفيلد، أمين سر فون هازه، الذي عده كيرستن بين ممثلي «التوجه الشرقي». ويزعم كيرستن أن نيدرماير اصطحب شخصا آخر معه اسمه الحركي «هانس».

لخص كيرستن مجرى اللقاء على النحو التالي: كان سيزار فون هوف إيكر أول المتحدثين، وقد أعلن عن رغبته في عقد سلام مع الغرب بعد إزاحة هتلر. لكن «هانس» عارضه وهاجم التوجه نحو الغرب باعتبارها رغبة زمرة صغيرة من الصناعيين. بينما ذكر نيدرماير خلال الأحاديث المتوترة بالتعاون الوثيق بين جيش الرايش والجيش الأحمر في العشرينات، وقال إن الاتحاد السوفييتي وحده يريد منح الرايش الألماني حرية حركة حقيقية بعد إطاحة هتلر. قال كيرستن: عن كلمات نيدرماير تركت انطباعا عميقا لدى جميع الحاضرين، بما في ذلك سيزار فون هوف إيكر.

ثم أخذ هينيج فون تريشكوف الكلمة وقال: «عزيزي نيدرماير، لقد تقادمت تجربتك الروسية وتم تجاوزها منذ عشرة أعوام، ونحن لا نستطيع توقع الرحمة من روسيا، وليس لدينا أي خيار آخر غير عقد السلام مع الغرب». في هذه اللحظة أدرك نيدرماير أن التعاون مع الجنرالات ذوي التوجه الغربي ليس واردا بالنسبة إليه، على حد قول كيرستن، رغم أنه استمر في اعتبار شتاوفنبرج واحدا من أنصار التوجه الشرقي.

زعم كيرستن أيضا، وهنا يفقد عرضه مصداقيته، أنه قابل نيدرماير من جديد عام 1944 ـ 1945 في سجن تورجاو العسكري، وأن الاخير وصف له محاولاته للتأثير في القيادة السياسية والعسكرية للرايش الثالث، وأن شعبة مكافحة التجسس لم تصبح نازية بفضل كاناريس، وإن كانت ذات عواطف غربية ومعادية بشدة للبلشفية. كما وصف سعيه خلال نقاشات الأركان والأحاديث الخاصة لتوجيه معارفه وأصدقائه نحو الصداقة مع روسيا، معتمدا

في ذلك على دعم أتباع بسمارك القدماء، الذي أيدوا التعاون مع روسيا من منظور محافظ.

أخيرا، ينتهي كتاب كيرستن بتمجيد نيدرماير، الذي ضحى بنفسه كرمز للرجولة المثالية الصادقة من أجل الثورة العالمية، وحاول، كنصير لتروتسكي، رسول الثورة الدائمة، خدمة الاشتراكية الدولية. وادعى كيرستن أنه دوّن ملاحظاته الأولى حول نيدرماير عام 1945/ 1946 في مدينة تسابفن، وقام منذ عام 1958 باستقصاءات عن مصيره. ومع ذلك، فإن كتابه، الذي وضعه بالتعاون مع صحافي بريطاني، بدا غير جدي، فهو يقوم على صلات تبدو مفبركة ومقابلات مفاجئة، تفتقر إلى الواقعية والقدرة على الإقناع. وهناك على كل حال معطيات عديدة غير صحيحة في الكتاب، كقوله إن نيدرماير عمل دوما بالتنسيق مع سيدة طاعنة في العمر، زعم أنها كانت على صلة مع لينين منذ الحرب العالمية الأولى وخلال فترة ما قبل الحرب الثانية. أما اسم هذه المتعاطفة الثرية مع البلاشفة فهو بيرتا سيبيرت، وهذا في الواقع هو إسم زوجة نيدرماير قبل الزواج، التي يقول كيرستن إنها كانت بدورها عضوا في «حافة الماء»، علما بأن الكتاب يذكرها باسم أول خاطئ هو «مارتا». أخيرا، فإن ادعاء الكتاب أن نيدرماير هو إقطاعي بافاري من نبلاء الدم خاطئ بدوره.

يعتقد الأشخاص الذي تعاونوا لفترة طويلة مع نيدرماير خلال الحرب العالمية الثانية من أمثال كارل فون شوفينجن أن عرض كيرستن ليس صحيحا: «بسبب العلاقة الوثيقة، التي كانت لنا، بار وأنا، طيلة عامين مع الجنرال، كان يجب أن يظهر في وقت ما ولمرة واحدة أنه مهتم بالفكر الماركسي أو مؤمن به. لكن هذا لم يحدث إطلاقا»[7]. حسب أقوال صحافي روسي، قيّض له أن يلقي نظرة على وثائق التحقيق السوفييتية مع نيدرماير،

7. رسالة شوفينجن إلى المؤلف في 13 كانون الأول عام 2000.

ليس في الوقائع ما يشير إلى نشاط قام به الجنرال كعميل لموسكو[8].

مع ذلك، من غير الممكن إطلاقا استبعاد أن يكون كيرستن قد قابل حقا نيدرماير، وربما روى له هذا أشياء نسج هو منها فيما بعد مغامرات سجلها في كتابه. وربما حدث لقاء بين نيدرماير وسيزار فون هوف إيكر وهينيج فون تريشكوف في شارع دافوزر في حزيران من عام 1943، لأن نيدرماير كان يزور آنذاك من حين لآخر زوجته في الغابة الخضراء، عندما كان يأتي من نويهامر، وتريشكوف عاد بعد فشل محاولة اعتداء أولى على هتلر إلى برلين، كما بدأ المتآمرون في برلين آنذاك الاستعداد للانقلاب الذي كانوا يخططون له، ولأنهم كانوا يحاولون اكتساب الوضوح حول أهدافهم السياسية، ويواصلون ترويج خططهم بين المارشالات والجنرالات[9].

هناك أيضاً معلومات أوردها كيرستن تتمتع بشيء من المصداقية، وعلى سبيل المثال فإن إرسال معلومات «حافة الماء» إلى موسكو عن طريق سويسرا يبدو معقولا[10]، لأن الاستخبارات العسكرية والسوفييتية كانت تدير في سويسرا شبكة يقودها ألكساندر رادو، الشيوعي الذي درس في نهاية العشرينات الجغرافيا في برلين، ونشر دراسات علمية، وعين عضوا مراسلا للجمعية الجغرافية الملكية في لندن. وقد خبير خرائط كنيدرماير، كما تؤكد ذلك الخرائط الصادرة في فيينا ضمن «أطلس السياسة والاقتصاد والحركة العمالية»[11]. انتقل رادو عام 1933 إلى باريس، حيث أسس وكالة صحافية باسم «جيوبرس»، التي تخصصت في توزيع خرائط جغرافية لمناطق الأزمات الراهنة، ثم عمل منذ عام 1936 كمدير مقر لشبكة تجسس سوفييتية صغيرة

8. رسالة بريد إلكتروني من الصحافي الروسي شتول.
9. انظر: فابيان فون شلابرندورف: ضباط ضد هتلر. ص 84.
10. انظر دافيد دالين: الجاسوسية السوفييتية، مبادئ وممارسات. كولم 1956، ص 220.
11. رسالة المدير الوزاري المتقاعد يورجن كون إلى المؤلف، التي أرسلها يوم 9 أيار عام 2002 من بون.

في جنيف، مستخدما وكالة «جينيفا برس» كغطاء وزع من خلاله العالم المحترم والطابع الناجح خرائط ومعلومات جغرافية حول مناطق الصراع الدائر. إذا كان نيدرماير، الجغرافي العسكري الأبرز للرايش الثالث قد بحث عن صلة خارجية، فإنه سيكون قد وجدها حتما على بحيرة جنيف.

أكب نيدرماير على دراسة الجمعيات السرية الشرقية، عندما كان طالبا لدى الأستاذ جورج ياكوب في جامعة إرلنجن. وكان قد عرف خلال رحلاته إلى أفغانستان وفارس تقليد «التقية» الشيعي، وأحب التنكر، حتى أنه يظهر في صورة التقطت عام 1913 في مسجد الإمام رضا في مشهد وهو يرتدي لباسا فارسيا. إلى هذا، فقد حمل أسماء حركية، حين كان يسافر كرجل ارتباط لهانس فون سيكت إلى لينين وتروتسكي. لذلك كان رفيقه في الحرب فوجت، الذي أقنعه نيدرماير عام 1922 بالتعاون مع البلاشفة، عندما طرح بعد عودته من موسكو السؤال حول الجهة التي يعمل لها: أهي الأفغان أم البلاشفة؟. كما أنه كان لزوجته، التي اقترن بها فجأة عام 1922 دون أن تكون لها علاقة معروفة بحياته من قبل، صفة غريبة هي أنها لم تنتسب إلى اسمها الأول الأصلي «بيرتا»، بل كانت تطلب مخاطبتها باسم «لوته».

ليس هناك أي تأكيد لزعم كيرستن، الذي جعل نيدرماير ماركسيا من التوجه التروتسكي. وتشير المواد المتوفرة إلى أن الجنرال كان على مسافة بيّنة من سياسة هتلر، واعتنق ميولا بلشفية قومية، كان يمكن العثور عليها لدى كثير من الضباط المحافظين أيضا. لقد عرف نيدرماير شتاوفنبرج، وإدوار فاجنر، وأليرشت هاوسهوفر، وهانس فون هيرفارت وغيرهم من المتآمرين، إلا أنه ليس ثمة من دليل يشير إلى أنه شارك بصورة إيجابية في المقاومة، رغم نفوره من هتلر وسياسته الشرقية العرقية. ومن الثابت أنه عارض سياسة التعليم المدمرة، التي طبقها الساسة النازيون، وأطلق يد ضباطه، عندما كانوا يواجهون الدوائر الحكومية النازية داخل منطقة انتشار فرقته في جنوب أوكرانيا. إلا أن اعتقاله والدعوى ضده بسبب «تخريب

الروح العسكرية» لا يرجعا إلى اشتراكه في الاعتداء على هتلر، بل فقط إلى نقده العاصف وغير المنطبط لسياسة هتلر، وللتعامل مع المتآمرين وأسرهم بعد 20 تموز من عام 1944.

عندما أمضى نيدرماير بضعة أيام من شهر آب 1944 في برلين، سكن عند مساعده أرتور كون في برلين فروناو، لأن بيته في الغابة الخضراء كان قد دمر أثناء غارة جوية. تذكر ابن كون، الذي كان يومذاك في الرابعة عشرة من عمره، يوم 9 أيار 2002 جيدا ذاك الصيف الحربي الحار، ونبأ العشرين من تموز وانهيار مجموعة جيش الوسط على الجبهة الشرقية. لكنه يتذكر نيدرماير قبل كل شيء: «لقد كان واضحا من أحاديثه مع والدي أنه لا يثق بقيادة الرايش الثالث. وكان يقول بصراحة أننا خسرنا الحرب، ويأمل بسلام تفاهمي مع الاتحاد السوفييتي، رغم أنه كان يتخذ موقفا نقديا من اللجنة القومية لألمانيا الحرة. بنظرة راجعة، يبدو لي أنه كان إنسانا مستقلا كل الاستقلال، ليس اشتراكيا قوميا عن قناعة، أو متعاطفا مع الشيوعية أو البلشفية، حتى إن كانت قد صدرت عنه مواقف ملتبسة حيال أشخاص آخرين»[12].

تورغاو، حصن تسينا

يطبع قصر هارتفيلد صورة مدينة تورغاو، المدينة الصغيرة على نهر الإلبة، بطابعه. كان القصر ذات يوم مقر الأمير الساكسي المحلي، وفيه عرض هاينريخ شوتس أول أوبرا ألمانية. لكن المدينة الصغيرة لا تدين يشهرتها العالمية إلى تقاليدها الثقافية بل إلى تاريخها السياسي، فعلى الجسر القريب منها تصافح يوم 25 نيسان 1939 لأول مرة الجنود السوفييت والأميركيون على الأرض الألمانية.

12. رسالة يورجن كون: مرجع سابق.

يقع قبالة المدينة حصن قديم اسمه حصن تسينا، يستخدم اليوم أيضا كموقع للحجز والتوقيف، بعد أن انتقل إليه خلال الحرب العالمية الثانية السجن العسكري السيئ السمعة، وجعلت الاستخبارات السوفييتية منه بعد الحرب معسكرا خاصا قتل فيه مئات الناس جوعا، ويذكر معرض صغير يضمه أحد أبراج القصر بمصير من سجنوا فيه.

اعتقل نيدرماير في حصن تسينا بين مطلع تشرين الأول 1944 وأواخر أيام الحرب عام 1945. ذلك كان وقتا صعبا بالنسبة إليه، لأنه كان مريضا. كتب ريتشارد نيدرماير إلى شقيقه فريتز يوم 12 كانون الثاني عام 1944 يقول: «أرى من الضروري الاتصال بالمحامي الذي يدافع عنه من أجل إلقاء أضواء على الحالة، التي لا يستطيع أوسكار أو غيره إضاءتها». ثم رجا شقيقه الطبيب: «تستطيع التعبير عن هذا كله أفضل مني بكثير، لذا أرجوك أن تكتب باسمك واسمي». وفي السابع من شباط كتب فريتز «شهادته الطبية».

تسمح قصة مرض نيدرماير بإلقاء نظرة تدعو إلى التأمل على مجالات حياة غريبة ومغلقة عادة، لأن فريتز رأى في شقيقه مريضا: «يعاني شقيقي أوسكار فون نيدرماير منذ شبابه المبكر من اضطرابات هضمية تأخذ شكل إمساك حاد يسبب له وجع رأس شديد ومتكرر. إلى هذا، لديه اضطراب في إفراز عصارات المعدة الهاضمة جعله غير قادر لسنوات طويلة على تناول الحليب والزبدة والجبن. وقد ظهرت لديه منذ بداية عمله كضابط علامات استعداد لسرطان المعدة، عالجته قبل الحرب العالمية، خاصة عندما كنت طبيب البعثة التي قادها في أفغانستان وبعد الحرب بسنوات طويلة. بسبب الانفصال المكاني بيننا، الذي استمر سنوات كثيرة، عالجه أطباء آخرون منهم الأستاذ نيسن في برلين. نتيجة هذه الاضطرابات المعوية والهضمية الحادة ظهرت لديه اضطرابات عصبية قوية يخالطها مزاج اكتئابي، عبر عن نفسه قبل كل شيء في ردود أفعاله العنفية جدا على ما قد يتعرض له من هجمات شخصية ويواجهه من اعتراض على آرائه، الأمر الذي كانت معالجته صعبة

جدا حتى داخل الأسرة، وجعل أفرادها يتحاشون الاختلاف في الرأي معه خلال فترات مرضه.

عانى شقيقى أشد ما تكون المعاناة من هذه الأوضاع، لذلك أحجم عن الحديث طيلة أسابيع أحيانا، وحاول بحيوية لا تصدق السيطرة على نفسه عبر تحقيق إنجازات جسدية وفكرية متصاعدة، وهو ما قاده كتلميذ ثانوي وطالب في المدرسة الحربية وضابط إلى التحكم بمرضه من خلال النشاط الرياضي، كالقيام بجولات طويلة وصعبة في جبال الألب، وممارسة رياضتي التنس وركوب الخيل، وقبل هذا وذاك تعلم اللغات الأجنبية وبذل الجهود العلمية، لا سيما في المجال الجغرافي، علما بأنه وصل في هذه الحقول جميعها إلى مستوى يبعث على الإعجاب. لكن هذا الإفراط في استغلال قواه الجسدية والفكرية سبب له من جهة أخرى انتكاسات ثقيلة، وهو ما ظهر بوضوح بعد سقوطه وهو يقوم بتسلق جبال الألب قبل الحرب العالمية الأولى، مما سبب له ارتجاجا في الدماغ، فضلا عن سقوط متكرر خلال ممارسته حركات فروسية جريئة.

لم يعد فريتز نيدرماير جراح شقيقه ويقترح جعلها أساسا في تقويمه النفسي، لأنه سيتضح عندئذ أن تصريحاته أمام الضباط خلال السفر من برلين إلى الجبهة الغربية لم تكن غير مجرد سوء تفاهم، وأنها «لا تتعارض بأي حال مع فكر من أدلى بها. أما الضرر الأصلي الذي يترتب عليها بالنسبة إلى الشخص أو إلى الجماعة فهو ينشأ عن قيام أشخاص ما بإعلام دوائر أوسع بسوء التفاهم، جاعلين بذلك جماهير واسعة تضل سبيلها إلى عظمة فكرة الفوهرر، لأنهم أساؤوا إلى أكثر أتباعه استقامة».

أيد أوسكار نيدرماير وثيقة شقيقه، رغم أنها ذهبت في رأيه بعيدا بعض الشيء. وقد أجاب يوم 23 شباط 1945 من ترجاو قائلا: «أشكرك على شهادتك وأسطرك بتاريخ 6 شباط، التي كتبت بطريقة تتسم بالمبالغة». ثم

وصف العبء العصبي الذي عانى منه نتيجة قصف وسط ألمانيا بالقنابل وقال: «كانت درسدن مخيفة». تلقى نيدرماير علاجا بالأشعة بسبب آلام في أسفل البطن، وكان بحاجة ماسة إلى نمط آخر من الغذاء. في 20 شباط عام 1945 أبلغ المحامي الدكتور بيكر من تورغاو شقيقه فريتز بالتأكد من وجود سرطان إثني عشري لدى أوسكار.

أكد الأستاذ نيسن من برلين شهادة الأخ. وكان قد عالج أوسكار طيلة سنوات كثيرة، فكتب: «يخضع فون نيدرماير منذ أكثر من عشرة أعوام للعلاج في عيادتي. نتيجة لإجهاد جسدي وفكري خارق استمر عبر حياته كلها، خاصة في الحرب العالمية السابقة حين كان قائدا للحملة الشرقية المعروفة وبعد الحرب كعالم معترف به، نشط خلال سنوات كثيرة كأستاذ جامعي ومدير معاهد جامعية، وبرز في الوقت نفسه كضابط عامل في قيادة القوات المسلحة العليا، أرهق الجنرال صحته.

تحول فريتز نيدرماير إلى داعم رئيس لشقيقه. وقد أقام الكاتب هانس كاروسا، الذي عرف فريتز في باساو خلال أيام الحرب الأخيرة، نصاً أدبيا صغيرا له، حين قال عنه: «إنه نسخة أصلية من جذع بافاري قديم، وظاهرة تذكر بلودفيج توماس، طبعه في هياج قوي دائم تلطفه حرمه كأم رؤوم، رقيق في جوهره، فهو رجل يبدو أنه لا يعرف التعب». كان فريتز وأوسكار شديدي الشبه أحدهما بالآخر.

كان على رئيس الأطباء فريتز التعامل مع كم هائل من العمل، عجز عن تأديته في زمن السلم، مع أنه كان يكرس نفسه في أوقات فراغه النادرة بشغف للمشفى واهتمامات أخرى، بينما وضع جداول تاريخية مقارنة، أراد بها إلقاء الضوء على الارتباطات الداخلية في تواريخ الشعوب، تطبيقا لنهج أوزفالد شبنغلر. كما وجه اهتمامه إلى بحث أمراض السرطان وسبل الشفاء منها. وقد وصف هانس كاروسا، الذي كان طبيبا بدوره، كيف كان فريتز

يرفض قبول العجز تجاه الأمراض غير القابلة للشفاء: «كانت ثقته بمبضع الجراح وحده يتناقص باضطراد، أخيرا، ركّب دواء لتجديد النسج جعله في هيئة أقراص صغيرة، تكون من أعضاء أجنة حيوانية». وكان نيدرماير يمد كاروسا أيضا بأقراصه، «التي كان يمكن اعتبارها خبز نيدرماير البيتي الطبي»[13].

كتب أوسكار نيدرماير إلى شقيقه رسالة من تورغاو يوم رأس السنة عام 1944: «لا شيء يجدي غير خطوات مباشرة يقوم بها نافذون في الحزب». وفي 8 كانون الثاني 1945 ألح عليه بضرورة أن يتوجه مباشرة إلى ممثلي النظام الأكثر أهمية، إلى الجنرالات وقادة الرايش، إلى كايتل وغيره من الأشخاص الذين لهم صلة مباشرة مع هتلر». «لا حاجة لأن أكتب إليك حول أهمية قائد إس إس الرايش». كان أوسكار يعد نفسه بالقليل من قائد أركان القوات المسلحة، الجنرال ألفريد يودل، ناصح هتلر في القضايا الاستراتيجية والتكتيكية: «ليس لدي، كما أعتقد، حظوة كبيرة لدى يودل».

تكدس العمل في مشفى فريتز في باساو، فقد كان عليه معالجة المرضى والجرحى والفارين من منطقة الدون. وقد كتب يوم 7 شباط إلى شقيقه: «يتزايد عملي باضطراد، فلم يعد لدي غير عملي والعمل من أجلك». عبأ فريتز علاقاته في برلين، وتشير رسائله إلى عدد الأشخاص الهائل، الذي انشغل خلال أشهر الرايش الثالث الأخيرة بمصير أوسكار، وأية شبكات كانت موجودة فيه، وكيف تمزقت جميعها.

كان طبيب هتلر الخاص، الأستاذ تيو موريل، يتبادل الرسائل مع فريتز حول طرق علاج غير تقليدية. وقد رجاه الأخير يوم 5 شباط 1945 مد يد العون لشقيقه، لكن الرد الذي وصله كان غير مرض. كتب موريل: «بما أنه ليس من المرغوب فيه أن أتدخل في قضايا من النوع المذكور، وبما أنه

13. هانس كاروسا: عوالم متباينة، تقرير عن حياة. فرانكفورت 1962. ص 163.

توجد لدي تعليمات بإيصال طلبات كهذه إلى الجهات المختصة، فقد أرسلت كل ما وصلني منكم مرفقا برسالتكم إلى ديوان الفوهرر». وقد عبر موريل عن أسفه لأنه لا يستطيع شخصيا نقل طلب نيدرماير إلى هتلر: «يؤسفني كثيرا أنني لا أستطيع شخصيا عرض القضية عليه، مثلما ترغبون وتريدون».

توجه نيدرماير أيضا إلى أستاذه الأكاديمي، الجراح الشهير فرديناند زاوربروخ، الذي وعده بالمساعدة يوم 10 آذار 1945، وتدخل لصالح أوسكار لدى جهات حزبية نافذة. في 14 نيسان 1945 شكر التلميذ أستاذه: «إن تدخلكم الفاعل لصالح شقيقي هو في نظري دليل جديد على أنكم عززتم أقوالكم بالأفعال، على عكس ما فعله عدد كبير من الناس». ثم أخبر فريتز أستاذه عن تيار الفارين المتواصل من المجر وفيينا، والعدد الكبير من النساء والأطفال الجرحى، ووصول جرحى يوميا في حال حرجة بسبب إطلاق النار عليهم من طائرت تحلق على ارتفاعات منخفضة، باختصار، إلى إرهاق جسدي ونفسي دائم صار تحمله بالكاد ممكنا: «لذلك أفكر بأعظم قدر من الشكر بكل أولئك الذي أيقظوا مؤهلاتي كطبيب جراح ودعموها، كما أفكر خاصة بالوقت الذي أتيح لي فيه أن أكون تلميذكم». أشار فريتز بحذر، نظراً إلى الانهيار الوشيك، إلى أن شقيقه كان على حق في القضية التي يحاسب عليها: «لا أريد أنا نفسي اتخاذ موقف من أحداث هذه الحرب الرهيبة، المستمرة منذ ستة أعوام، كي لا يساء فهمي، ومع ذلك لا أستطيع التخلص من فكرة أن شقيقي كان على حق في تحذيراته الدائمة من الاستهانة بقدرات الروس التسليحية».

عمل ريتشار نيدرماير بدوره من أجل حرية شقيقه، فكتب إلى القيِّم على شؤون الرايش ريتر فون إيب، زميا أوسكار في أخوية ماكس جوزيف. لكن إيب لم يفعل شيئا. وكتب ريتشار إلى يودل، الذي كان يعرفه من أيام شبابه، حين كانا قبل الحرب العالمية الأولى عضوين في فيالق طلبة الكلية

الحربية البافاريين، التي تخرجا منها سوية. وقد رد رئيس القوات المسلحة في 3 كانون الثاني عام 1945 من مقر الفوهرر الرئيس رافضا طلب ريتشارد: «أدلى شقيقك في آب وأيلول من عام 1944 في حضرة ضباط من أركانه ومن مجموعة الجيش ب بتصريحات ضد سياستنا وضد استمرار قتالنا وضد التدابير التي اتخذت بعد 20 تموز». وأشار يودل إلى أن القضية من اختصاص وزير عدل الرايش، بما أن المسألة تتعلق بجريمة سياسية: «ستفحص المحكمة بدقة ما إذا كان يوجد ثمة سوء فهم لتصريحات شقيقك. وأنا لا استطيع للأسف القيام بذلك».

توجه مساعد نيدرماير في برلين أرتور كون إلى ألفريد روزنبرج، وزير الرايش لشؤون المناطق المحتلة. كتبت بيرتا (لوته) نيدرماير يوم 2 شباط تخبر ماري لويزه، زوجة فريتز: «كتب كون إلي يبلغني أنه أتيحت له يوم 15 كانون الأول فرصة طويلة وتفصيلية للحديث حول أوسكار مع وزير الرايش روزنبرج، الذي اتخذ موقفا متفهما حيال القضية وطلب إبقاءه على اطلاع مستمر على تفاصيلها. قال كون إن لديه أملا كبيرا في مساعدته». إلى هذا، أخبرت بيرتا زوجة فريتز بوجود رأي ثابت في فرقة زوجها القديمة يعتقد أنها جورجية.

بدوره، ذكر كون في رسالة إلى فريتز بتاريخ 30 كانون الأول 1944 أن زوجة أوسكار توجهت شخصيا إلى بورمان وهتلر، وأنه تم الاتصال بهيملر عن طريق أخرى، فقد اتصل فريتز بشقيق فيلق من أخوية «راتيسبونيا» هو مستشار الحكومة الدكتور ريتشارد كورهير، الذي كان من دائرة هيملر الشخصية، ومدير مكتب الإحصاء في الـ إس إس مع أنه ليس عضوا فيها.

كتب كورهير بعد الحرب، في 15 آذار 1962، تقريرا طويلا حول «تعاطيه مع وضع أوسكار فون نيدرماير»: «هكذا كتبت رسالة إلى هيملر دافعت فيها بحرارة عن أوسكار فون نيدرماير، الذي لم أكن أعرفه شخصيا،

لكنه كان منذ فترة دراستي رمزا قوميا بالنسبة إلي، يشبه لورانس لدى الإنجليز. بيد أن صديقي وشقيق أوسكار قدما لي معطيات حول أسباب اعتقاله مجافية لما لدي اليوم من معلومات، تشير إلى أنه كان عام 1944 في الجبهة الفرنسية وقال هناك لبعض ضباطه: «إذا استمريتم في اسطبل الخنازير هذا، فإننا سنخسر الحرب». وقد قام أحد سامعيه بتجاهل كلمة اسطبل الخنازير ووشى به بصفته داعية هزيمة، لأنه قال إننا سنخسر الحرب. لذلك تم القبض على نيدرماير وحوكم وسجن في تورغاو بانتظار شنقه».

واصل كورهير ذكرياته حول طلبه إلى هملر، فقال: «إن شنق نيدرماير سيكون أفظع ضربة ضد ألمانيا ذاتها، وضد القوات الألمانية المسلحة، وضد إرادتها القتالية، لأن نيدرماير رمز الجندي الألماني، الذي أثار حماسة جيل كامل من الشبان بعد الحرب العالمية الأولى. أخيرا، طلبت الحرية له. لكن هيملر رد بلغة ملتبسة على كورهير: «أعتقد أنني أتذكر بصورة صحيحة أن هيملر كتب بنفسه إلي أو أمر سكرتيره الصحفي بالكتابة إلي، وأخبرني أنه سيتولى المسألة بنفسه، ويحسن بي أن لا أقلق بعد».

في النهاية، كتب أرتور كون يوم 18 كانون الثاني من عام 1945 تقريرا سنويا حول نشاط معهد السياسة العسكرية، بقصد التخفيف عن معلمه الأكاديمي المعتقل، قدمه يوم 29 كانون الثاني إلى عميد جامعة برلين[14]. بسبب المحاكمة الوشيكة، تم الاهتمام بصورة خاصة بأمانة نيدرماير السياسية ومصداقية ما أنجزه معهده بالنسبة إلى عمل الحزب القيادي داخل القوات المسلحة. لذلك ألقى كون عام 1944 «محاضرتين عن الولايات المتحدة الأميركية في سونتهوفن أمام جنرالات القوات المسلحة، المدعوين من الفوهرر. وقد عرّج حتى على التفاصيل التي تنقض تهمة تقويض القدرة العسكرية: «عندما قدم قائد الرايش روزنبرج كتابه: «أسطورة القرن العشرين»

14. انظر التقرير السنوي لجامعة هومبولدت، كلية الفلسفة، رقم 48 (معهد العلوم العسكرية).

مشفوعا بإهداء شخصي إلي، فإنه اعترف بإنجازات معهد العلوم العسكرية وحث على تعزيز عمله». حدث هذا، أغلب الظن، يوم 15 كانون الأول عام 1944، حين زار كون الوزير وطلب إليه مد يد العون إلى نيدرماير.

كتب كون إلى فريتز بعد أيام قليلة من تأليف تقريره يبلغه أن معهد نيدرماير تلقى إصابة مباشرة دمرته كليا خلال غارة جوية ثقيلة تعرضت لها برلين يوم 3 شباط 1945. لم تقع، لحسن الحظ، خسائر بشرية، وإن كان كون وعاملين آخرين قد سجنوا أول الأمر في القبو، لكنهم تمكنوا من إحداث ثغرة في الجدار والخروج من تحت الأنقاض. ثم تقرر أن يجهز القسم الذي لم يتداعى من القبو كمكان عمل جديد، يمكن فيه مواصلة أعمال المعهد الملحة. أما الخبر الأهم، الذي تعلقت به الآمال، فقد جاء في نهاية رسالة كون: «لقد دمرت الغارة الجوية محكمة الشعب، وقتلت المدعي العام فرايزلر».

أفكار معتقل

لم يغير موت المدعي العام شيئا من وضع نيدرماير، كما لم يغيره مقتل شاهد الإثبات الرئيس الرائد هولفيلد، الذي سقط خلال الدفاع عن بوزن مطلع عام 1945. اعتبر هانس فون هيرفارت هولفيلد عام 1998 أن هولفيلد «لم يكن ولدا سيئا»، لكنه صدق بسذاجة وثقة الوعود المغرية والشعارات الأيديولوجية للدعاية النازية، شأنه في ذلك شأن ألمان كثيرين من جيله، وعندما وشى بنيدرماير كان عماه الأيديولوجي يوهمه أنه يخدم بلاده.

أصدر قاضي التحقيق في محكمة الشعب في كانون الثاني من عام 1945 أمرا رسميا باعتقال نيدرماير، يتهمه «بشل إرادة الشعب الألماني في الدفاع عن نفسه عسكريا». ويؤكد أنه «أدلى بتصريحات استسلامية أمام ضباط من أركانه في الفترة بين 27 آب و 3 أيلول 1944 خلال سفره بالقطار من بوتسدام إلى ميتز وقيامه برحلة تفتيشية تالية عبر المناطق المحتلة وهي

تصريحات اعتبرت تخريبية، خاصة وأنه اعتبر استمرار القتال عبثيا، ووجه النقد إلى سياسة الفوهرر الشرقية. أما الاعتقال بقصد التحقيق فقد فرض عليه بتهمة الفرار من المعركة، ولأن موضوع التحقيق جريمة». وقد اتضح لنيدرماير أن الإشارة إلى واقعة «تقويض القدرة الدفاعية» الجرمية تعني أنه سيحكم على الأرجح بالإعدام، لأن هذه كانت العقوبة الحتمية التي تصدر ضد كل من يرفض القيام بواجب الخدمة في القوات المسلحة الألمانية أو المتحالفة معها، أو يحاول بصورة علنية شل أو تقويض إرادة الشعب الألماني أو أي شعب حليف في الدفاع عن نفسه عسكرياً.

وكان أوسكار قد كتب يوم 2 كانون الثاني عام 1945 إلى شقيقه فريتز: «ليس واضحا إطلاقا بالنسبة إلي ما ينوون فعله حيالي. إنهم سيجعلونني «غير مؤذ» بشكل من الأشكال، فإن لم أخرج فورا أو بعد حين، كان بوسعي أن أعتبر المسألة منتهية». كان مزاج نيدرماير يتذبذب بين الإحباط والأمل، كما تؤكد رسالة أخرى بعث بها يوم 25 شباط عام 1945: «إنني مستعد لكل شيء ولم تعد لدي أية أوهام بعد. لقد خدمت وطني طيلة أربعين عاما كما لم يخدمه غير قلة من أبنائه، لكنني أعتبر اليوم ضارا بالشعب!. لا جدوى من أن تقوم بأي جهد آخر، وإنني لأشكركم جميعكم على رأيكم الحسن بي وعونكم لي، وأود لو أستطيع يوما رد الجميل لكم». ثم كتب في 18 آذار: «إنني مستعد لكل شيء بعد النطق الجديد بالحكم».

كان نيدرماير يدرك أن مصيره مرتبط أوثق ارتباط بمصير الرايش. تشير رسالة كتبها يوم 1 آذار 1945 بأفكار قيامية: «نحن نقف على مفترق زمن مخيف، لأن مدننا تغرق واحدة بعد أخرى في الرماد والهباء، ومصير درسدن ولايبزيج وإيرفورت وبرلين مرعب، ناهيك عن تلك البعيدة عنا كميونيخ ونورنبرج وشتوتجارت، بالإضافة إلى أشباح الجوع والأوبئة، التي تقترب دوما أكثر فأكثر، وانحلال الأسرة في كل مكان. ـ هل تستطيع أن تتصور ما يجري هنا في قلوب المساجين والموقوفين»؟. كان واضحا أن

نيدرماير صار يشعر الآن بالشكر للمؤازرة الروحية: «ثمة رجل رائع جدا هنا هو الكاهن الكاثوليكي السجين من مونستر».

بعد يومين، في 3 آذار 1945 كتب أوسكار رسالة أخرى أراد بعثها بواسطة ريتشارد كورهير، الذي زاره في تورغاو، لا يصلح مضمونها، من وجهة نظره «لنقاشات أخرى، وينصح أن يراعى الحذر في إطلاع آخرين عليها». هذه الرسالة ليست غير شهادة على بؤس الوجود. كان نيدرماير يعيش في زنزانة تقع وسط زنزانات المجرمين الجنائيين، «السجناء الموصوفين، يعيش تحت ضغط عبور الطائرات القاذفة الدائم فوق المكان، بينما كان يخضع للعلاج بالأشعة مرات عديدة في الأسبوع بسبب سرطان الإثني عشري. كان أمله قد تبدد كله على وجه التقريب»: «إن الضغط السياسي من أعلى قوي جدا». و: «إن الوسط كله يُرهق هنا الأعصاب على أفظع صورة. أما رؤية الألم الذي لا اسم له، الذي يعاني منه رفاق كثيرون فهو مأساة إنسانية ذات أثر مدمر. وحتى في أفضل الأحوال، فإن المرء ليس غير شاهد على روحه. وأنا أحتاج إلى كامل شجاعتي وإرادتي كي أبقى منتصب القامة، وقد أعددت نفسي داخليا لكل شيء».

يلي هذا نظرة عميقة إلى مصير ألمانيا: «يبدو وكأن سوط الرب يتأرجح فوق بلدنا، وكأن الشعب الألماني يجب أن يعاقب أخيرا من أجل آثامه وأخطائه، وكأن غروره وحماقاته السياسية واحتجاجه الأزلي بوسائل غير كافية يجب أن تمر أمام عينيه، وكذلك وصوله المتأخر دوما. هذا الشعب، الذي يمتلك صفات كثيرة جديرة بالحب، وأنجز فرائد غير مسبوقة في القتال والحرب، ويستحق أن يسيطر إلى جانب الروس على القارة الأوراسية، هو مع ذلك شعب قليل الحكمة وضعيف الطبع جدا. لقد كان دوما شعبا بلا أرض، وأزعج في اندفاعه نحو الحياة جيرانه. وهو لم يتعلم من تاريخه ولن يتعلم منه. إننا نريد بحق البحث عن مجال استيطان في الشرق وها نحن اليوم نطرد عبر نهر الأودر، ونتقوقع على أنفسنا بين الغلبه والفزع، وفوقنا

يحوم شبح الجوع والأوبئة. إن الألم الذي لا اسم له يقطع نياط قلب المرء. متى سيزال دمار هذه الحرب؟. ومتى سينخفض عدد الشعب الألماني إلى ما بين ثلاثين وأربعين مليونا، كي يستطيع العيش؟. وأية حياة سيسمح له أن يعيش؟».

بعد هذا، طرح نيدرماير سؤالا أخيرا: «هل هناك إطلاقا معنى لأن نعيش وندع أطفالنا يعيشون؟. لست للأسف الشديد قديرا بما يكفي لإبعاد هذه الأفكار عن رأسي. وأريد أن أصون نفسي من أشباح الرعب هذه، وأن أُشارك في النضال وأُسهم في صنع الأشياء، و، عند الضرورة، أن أموت مقاتلا، ولا أريد أن أجلس عاجزا ودون فعل هنا، أعذب نفسي وأنتظر. إنني لن أفقد غير حياة بائسة قديمة، لكنني أريد فقدها بشرف»!.

بعد كتابة هذه الأسطر، حدث تبدل في مزاجه، فنظم أفكاره وغطس ريشته في قارورة الحبر وكتب بتركيز، وبيد ثابتة: «والحق أنني أرى أزمنة جدية تالية لا تشبه ما سبق لنا أن عشناه. ومع ذلك فإنني لا أؤمن باندثار الشعب الألماني، وأعلم أننا بقدر ما نخرج بسرعة من الحرب، حتى إن تطلب ذلك أعظم التضحيات، فإننا سنستأنف صعودنا خلال فترة قصيرة من زمن لا مفر من أن يشهد انفجار الصراعات الروسية / الإنجليزية، آنذاك ستحين فرصتنا الكبرى!». فهم نيدرماير الصراعات الروسية ـ الإنجليزية باعتبارها مواجهات أنجلو أميركية / روسية، وأضاف يقول: «إننا لن نعيش هذا بالتأكيد، لكننا نستطيع التمهيد له . . . وأنا أعرف جيدا ما كنت سأفعله اليوم لو كنت حرا . . . ولن استكين إلا عندما أكون في القبر».

زار كون بعد يومين، في الخامس من آذار، معلمه في الزنزانة، وأخبر في النهاية فريتز نيدرماير أن شقيقه بدا حسن المنظر إلى درجة مباغتة، واستعاد لزاجته الفكرية ومرونته. كان الغذاء في حصن تسينا سيئا جدا، لكن التواضع والترفع عن الحاجات أعانا نيدرماير على التعايش مع نقص الطعام.

وقد تحدث الأستاذ ومساعدة العلمي عن «أشياء كثيرة إيجابية وتبعث على التفاؤل في المستقبل».

ضاعت فيما بعد آثار أوسكار فون نيدرماير في فوضى أيام الحرب الأخيرة، فكتبت زوجته يوم 24 كانون الثاني عام 1946 إلى العقيد فالتر هانس تقول: «وصل آخر خبر تلقيته من زوجي في ترجاو يوم 2 نيسان، ثم اختفى منذ ذلك الوقت. ولا بد أن يكون قد خرج حيا من تورغاو، إذا أن هناك أخبار تقول إنه تركها مع سجناء آخرين، ووصل إلى كارلسباد، حيث سلموا أنفسهم للروس». وقد قال بعض ضباط أركانه أنه لا يجوز استبعاد هذا الاحتمال، «لأن معرفته بعدد كبير من القادة الروس يمكن أن تكون ذات فائدة». لكن السيدة نيدرماير كانت متشائمة، لأن روسا قادة كثيرة ممن عرفوا زوجها في موسكو قد فارقوا الحياة: «لقد تمت تصفيتهم آنذاك مع توخاتشفسكي وآخرين».

مأساة صديق

بينما كان الجنود السوفييت والأميركيون يتصافحون على جسر نهر الإلبه قرب تورغاو، اختفى نيدرماير عن أنظار أصدقائه وأعدائه، بينما جذب صديقه كارل هاوسهوفر اهتمام المنتصرين إليه.

كان من المقرر أن تقدم الجيوسياسة التي درست في ألمانيا خلال الرايش الثالث، وهاوسهوفر نفسه كأبرز ممثل دولي لها، إلى محكمة مجرمي الحرب في نورنبرج، لأنهما كانا في نظر الأميركيين مسؤولين عن الإعداد للحرب العالمية الثانية ونجاحات الرايش الثالث العسكرية الأولى. والحق إن الرؤية الجيوسياسية حول مجال كبير بقيادة الرايش الألماني السياسية والاقتصادية، التي طالبت بتنافس ندي يغطي العالم مع القوى البحرية الأنجلوساكسونية، كان يجب أن تبدو في نظر الحلفاء، وعلى خلفية الجرائم النازية الرهيبة، جزءا تكوينيا مرفوضا أخلاقيا من أيديولوجية إجرامية.

هكذا تقرر أن تجلس الجيوسياسة الألمانية على مقاعد المجرمين في المحكمة العسكرية الدولية[15]. لكن اعتبارات تتعلق بالواقعية حتمت أن لا توجه التهم إلى جميع ممثلي الفكر الجيوسياسي العلمي في ألمانيا، وبدا من الأجدى في نظر الدوائر العسكرية الأميركية تقديم شخص واحد إلى المحاكمة وإدانته كرمز لحركة الفكرة بمجملها.

لخصت مذكرة أميركية في العاشر من أيلول دور كارل هاوسهوفر والجيوسياسة الألمانية من منظور أميركي. وقالت إن انتشار الفكر الجيوسياسي كان على ارتباط مباشر باستيلاء هتلر على السلطة، في حين لم تذكر إطلاقا النبضات الجوهرية التي تلقتها الجغرافيا السياسية منذ بداية القرن العشرين في ألمانيا، بفضل كتابات الأميركي ماهان والإنجليزي ماكندر.

أوردت المذكرة اسم أوسكار فون نيدرماير باعتبارها واحدا من أقرب أصدقاء هاوسهوفر إليه، كما ذكره هاوسهوفر نفسه خلال تحقيق جرى معه يوم 23 آب 1945 بصفته إنسانا ينتمي إلى الحلقة الضيقة التي دعمته علميا. اتهمت المذكرة الأميركية نيدرماير بأنه عرض في نيسان من عام 1933 استراتيجية الحرب الخاطفة ضد الاتحاد السوفييتي في «تأملاته الجغرافية العسكرية حول الاتحاد السوفييتي». تلك كانت قراءة خاطئة، فمن المعروف أن نيدرماير أراد في دراسته ترويج سياسة فون سيكت حول ضرورة التوجه شرقا والتعاون مع روسيا السوفييتية. على كل حال، فإن هذه القراءة الأولية الخاطئة للجيوسياسة الألمانية لم تكن غير مرحلة عابرة، والآن، في أيلول من عام 1945، بدأ نشاط ذلك الرجل، الذي حضر جديا الدعوى ضد هاوسهوفر والجيوسياسة الألمانية.

كان الرجل الذي واجه هاوسهوفر بصحبة اثنين من المرافقين يوم 25

15. يتبع العرض التالي وثائق تركة إدموند ولش، مكتبة جامعة جورجتاون، واشنطن العاصمة، الصندوق رقم 10. ومقالة ولش: سر هاوسهوفر، في مجلة لايف 16 أيلول 1944.

أيلول عام 1945 واحدا من أكثر الشخصيات نفوذا في العلوم السياسية الأميركية، واسمه إدموند ولش، الذي عرف عموما بلقب «الأب ولش». إنه لم يكن فقط كاهنا كاثوليكيا، وعضوا في جمعية يسوع، ونائب رئيس جامعة جورجتاون التي أسسها وأدارها الجزويت في واشنطن العاصمة، بل كان كذلك مؤسس ومدير مدرسة الوكالة الخارجية للجامعة النخبوية، ودرس مؤلفات هاوسهوفر بعناية منذ أكثر من عشرين عاما، فهل كان هناك من هو أكثر قدرة منه على تحليل الأسس الفكرية واحتمالات التأثير السياسية للجيوسياسة الألمانية؟. كان كارل هاوسهوفر ودائرته موضوعين في دائرة الأهداف التي أرادت الاستخبارات الأميركية وضع يدها عليها ودراستها بعناية بعد نهاية الحرب.

عندما دخل الأميركي غرفة عمل هاوسهوفر يوم 25 أيلول عام 1945، كان الأستاذ جالسا بسنواته الـ 76 قرب مكتبه وأمامه مخطوط، فوقف محييا، وبدأت المحادثة. لم يكن هاوسهوفر يعرف في تلك اللحظة أنه يجلس قبالة ضابط تحقيق. ولم يدرك سبب الزيارة الأصلي إلا حين أبلغه ولش أن حضوره إلى نورنبرج ضروري. عندئذ، رجا محدثه أن يسمح له بوداع زوجته، ثم صحبه إلى نورنبرج.

بعد أيام قليلة، في الرابع من تشرين الأول عام 1945 ـ وكان ولش يشارك في نورنبرج في التحقيق مع أحد الشهود ـ علم الجزويتي أن هاوسهوفر أصيب بنوبة قلبية، وأن الفحوص الطبية بيّنت أن وضعه الصحي يجعل من المحال الإطالة في التحقيق معه والدعوى ضده، وأن هجمة قلبية أخرى قد تقتله. قرر المحققون الأميركيون التخلي عن الدعوى بسبب هذا الوضع، واكتفوا عوضا عن ذلك بتحقيق يقوم به ولش وضابط آخر، على أن يتم بصورة تخلو من أي ضغط على المريض.

عقدت جلسة التحقيق الأولى في 5 تشرين الأول 1945، بعد يوم من

28. بروفيسور في برلين عام 1937.

29. قائد الفرقة في الميدان عام 1943.

30. كاب سونيون، آب 1941.

31. «... مناسبة أخرى حماني الله فيها». نيدرماير (إلى اليمين) أمام سيارته التي انقلبت على نفسها. أوكرانيا، مطلع أيلول 1942.

32. سلوفينيا، تشرين الثاني 1943، جنرالات ومساعدوهم: المقدم كونراد بار (الثاني من اليسار). نيدرماير، جنرال الخيالة إرنست كوسترينج وإلى اليمين مرتدياً قبة من الفراء وممسكاً بمسدس رشاش قائد الفرسان هانس فون هيرفارت، سكرتير الدولة اللاحق في مقر الرئاسة تلاتحادي ووزارة الخارجية ورئيس معهد جوته.

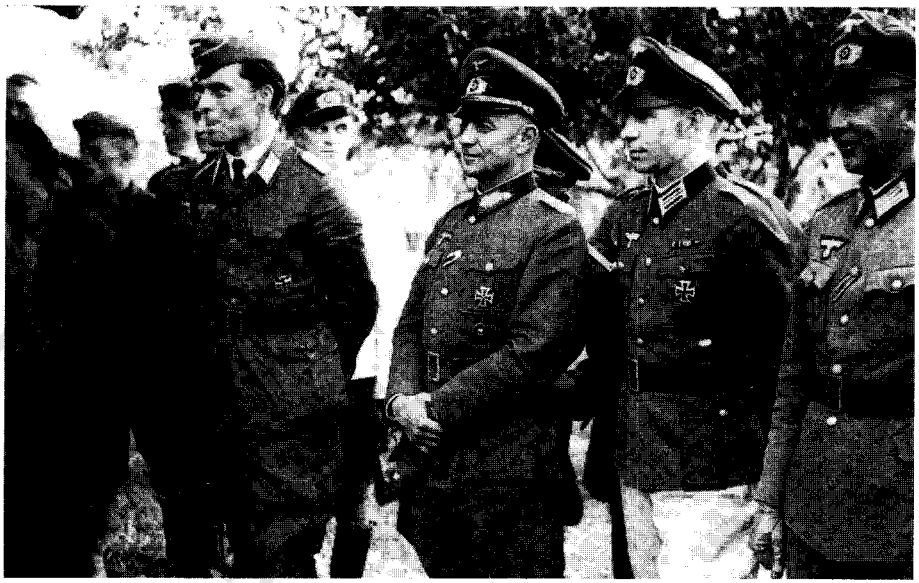

33. الأمير الباسم والفارس السعيد: كلاوس جراف فون شتاوفنبرج في زيارة إلى ميروجرود في أوكرانيا يوم 27 أيلول عام 1942.

34. مع منتسبي فرقة المشاة (التركية) 162.

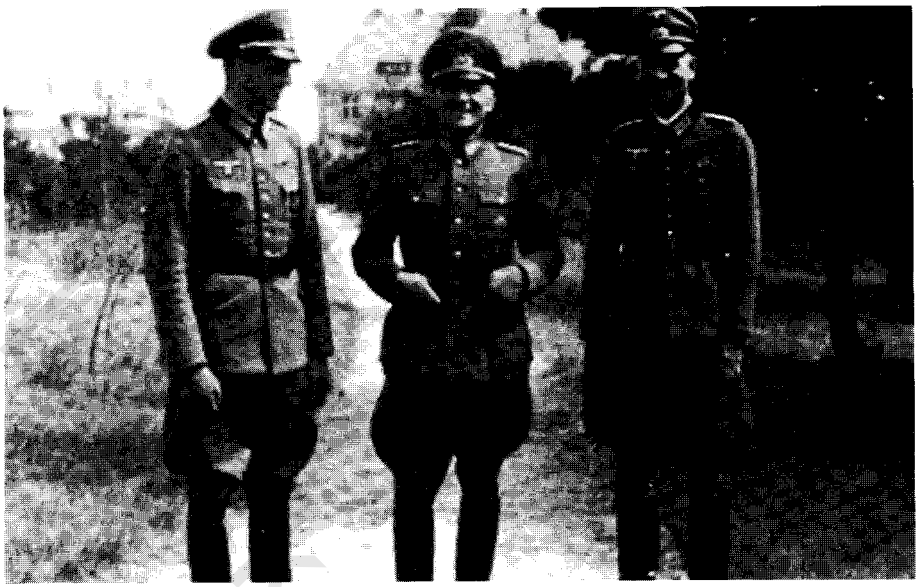

35. اللواء البروفيسور الدكتور أوسكار ريتر فون نيدرماير مع ضباط أركانه. نويهامر/سيليزيا، صيف 1943.

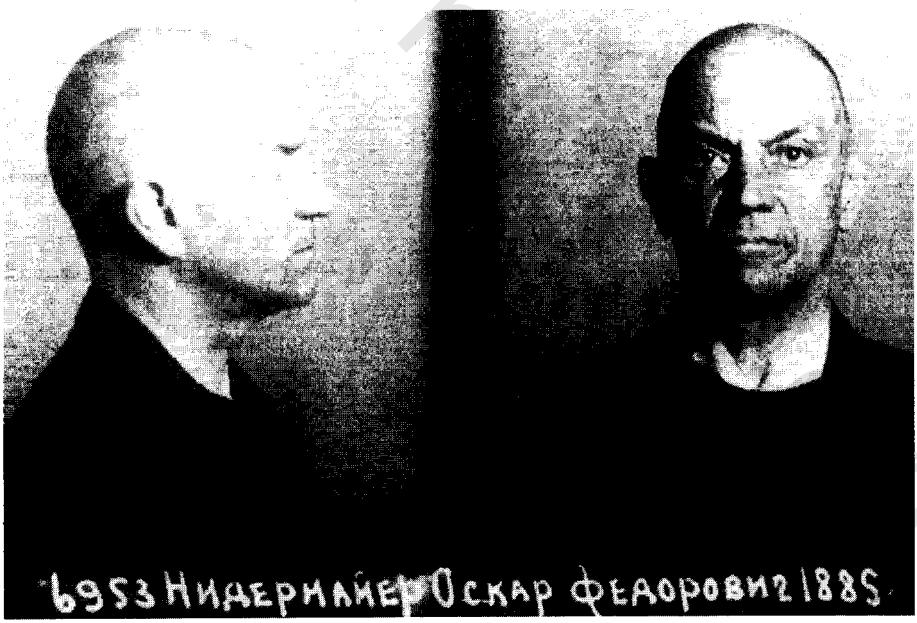

36. النهاية: الصورة الأخيرة من لوبيانكا. موسكو صيف 1945.

نوبة هاوسهوفر القلبية. وقد سأله المحققون الأميركيون قبل كل شيء عن علاقة برودولف هيس، فحدثهم عن صعوده إلى موقع نائب الفوهرر وطيرانه المفعم بالأسرار إلى إنجلترا، وأنكر مشاركته في مشاريع غامضة، رغم أن الإنجليز وجدوا في جيوب هيس بعد هبوطه بطاقات زيارة خاصة بكارل وألبرشت هاوسهوفر. أوضح هاوسهوفر كذلك أنه أراد نقل أفكار جغرافية وسياسية عقلانية إلى تلميذه المحبب، الذي اتصف بالشعورية وغلبته طباعه ولم يكن رفيع الذكاء، فسقط آخر الأمر تحت جاذبية هتلر نصف المتعلم، والقائد المتسلط القوي التأثير، الذي لا يقبل أي اعتراض.

علل هاوسهوفر جيوسياسته بأدلة كانت تتفق مع فكر نيدرماير، فهو يرفض مثله الإمبراطورية البريطانية العالمية، التي عملت في آسيا قبل كل شيء بمناهج تتعارض مع المدنية الأوروبية، بينها «حرب الأفيون» وتصدير المخدرات الى الصين. عندما واجهه ولش بمقالة ضد أميركا من عام 1939 تتحدث عن «بلوتوقراطيين متهودين وإمبرياليين يبتلعون الأرض»، أصيب بانهيار نفسي. يقول محضر التحقيق: «عندما قرأ هاوسهوفر هذا، انهار عاطفيا، وسالت الدموع من عينيه ولم يعد يقوى على النطق. وبما أنه عانى البارحة من نوبة قلبية تطلبت رعاية طبية، وبما أن الهجمة يمكن أن تتكرر، أنهى ولش الجلسة»، بينما كانت قوى هاوسهوفر الجسدية والفكرية قد وصلت إلى درجة شديدة من الإنهاك.

عندما غادر المترجمون والمختزلون الغرفة، أمر ولش بتقديم القهوة وقدم لفافة تبغ إلى هاوسهوفر، الذي تحسن وضعه بعد قليل، ثم سأله ولش لماذا انتهك شرف وسمعة أستاذ جامعة كبير بالدعاية لأفكار هتلر، وما الأسباب التي دفعته إلى دعم النظام النازي؟. أجاب هاوسهوفر مشيرا إلى الخطر الذي كان محدقا بزوجته نصف اليهودية، وإلى حقيقة أن مارتين بورمان أبلغ روزنبرج يوم 17 حزيران 1942 خطيا أنه «لم يعد من الجائز السماح لهاوسهوفر بلعب أي دور علني».

استؤنف التحقيق في اليوم التالي في نورنبرج. سأل ولش عن اهتمام هاوسهوفر باليابان الذي لازمه طيلة حياته، فأخبره عن إقامته طيلة عامين في مملكة الجزر الشرقية النائية قبل الحرب العالمية الأولى، وقال إن التحالف الدولي مع اليابان صار منذ تلك الفترة نقطة مركزية في تفكيره السياسي وعمله العلمي، وأنه عبر منذ عام 1924 عن أمله في أن تساعد اليابان في الشرق الأقصى على تجاوز القيود الاقتصادية والسياسية، التي كبلت معاهدة فرساي ألمانيا بها. عندئذ سأل ولش إن كان نفوذ هاوسهوفر الفكري والسياسي شجع الهجوم الياباني على بيرل هاربور، فرد إن سياسة قوى المحور تطورت في اتجاه تناقض مع سياسته الداعية إلى تغيرات متأنية، تدريجية وطويلة المدى.

في اليوم التالي، السابع من تشرين الثاني عام 1945، أمر الضابط المسؤول عن الاستجواب بإعداد هاوسهوفر لمواجهة حدث خاص هو وصول رودولف هيس إلى نورنبرج، بعد أن سلمته الدوائر البريطانية إلى المحكمة. كان المحققون قد قرروا إجراء مقابلة مفاجئة بين هاوسهوفر وهيس، ليتأكدوا إن كان ضياع ذاكرة الأخيرة مصطنعا أم حقيقيا. بما أن هيس وهاوسهوفر لم يكونا فقط معلما وتلميذا، بل كانا صديقين أيضا، فقد خال المحققون الأميركيون أن المواجهة المفاجئة بينهما ستكشف وضع هيس العقلي الحقيقي.

وقع لقاء الرجلين الساعة 14.30 من يوم 9 تشرين الأول في إحدى غرف التحقيق. رافق ولش هاوسهوفر إلى الغرفة، التي كان هيس جالسا فيها تحت الحراسة. عندما تعرف هاوسهوفر على صديقه، انطلقت من فمه همسة تنم عن الذعر وقال «يا إلهي». نظر إلى عيني هيس، ثم التقط يده وحاول عبثا اختراق جدار غيبوبته العقلية. سجل المراقبون الأميركيون أن هاوسهوفر خاطب هيس الفاقد الشعور والغائب بكلمة «أنت» الودية، لكن محاولته تحريض رد فعله من خلال تذكيره بأحداث أسرية وأصدقاء وأقرباء فشلت.

لكن هيس أوضح خلال المداولات الرئيسة للمحكمة العسكرية الدولية أنه يرجع غياب ذاكرته إلى «الاعتبارات الاستراتيجية» وحدها، ثم صمت من جديد. وقد حكم عليه بالسجن المؤبد وأُرسل إلى سجن مجرمي الحرب في شبانداو وسط شكوك في مؤهلاته العقلية وشكوك أخرى ترى أنه يتظاهر بالضياع العقلي. في 17 آب عام 1987 انتحر هيس، آخر رجل في سجن الحلفاء العسكري، دون أن يرد أحد بوضوح على التخمينات التي زعمت أنه موته لم يكن انتحارا.

أعاد ولش يوم 10 تشرين الأول عام 1945 هاوسهوفر إلى هارتشيملهوف على الأميركي، وأخبره أنه سيرجع إليه بعد حوالي ثلاثة أسابيع لاستلام رسالة وعد هاوسوفر أن يبرر فيها عمله. وبالفعل، أرخ هاوسهوفر يوم 2 تشرين الثاني من عام 1945 ووقع بحضور الجزويتي الأميركي «الدفاع عن الجيوسياسة الألمانية».

فارق كارل ومارتا هاوسهوفر الحياة سويا ليلة 10 إلى 11 آذار من عام 1946، بعد تجرع سم قاتل. كما شنقت مارتا نفسها على جذع شجرة كان زوجها يحبها بصورة خاصة، مع أنها كانت قد تناولت السم بدورها. في حين مات كارل عند قدميها وقد غرس أصابعه في التراب وبجانبه مصباح فيه شمعة مطفأة، كان ضوؤها قد أنار دربه الأخير. بعد أيام قليلة، في 14 آذار 1946 اقتفى الجزويتي القادم من واشنطن أثرهما، ثم أعلم ملايين القراء بمصيرهما: «عندما تتبعت، بعد أيام قليلة من انتحارهما، أثرهما خطوة خطوة، وحاولت إعادة تركيب الحدث الذي جرى في تلك الليلة العاصفة على واحد من أكثر تلال بافاريا وحشة، لم يكن بوسعي إلا أن أقارنهما بالمشهد الأخير من مأساة إغريقية».

ينعطف درب ضيق يقود إلى هارتشيملهوف من طريق الضفة، الذي يفضي إلى منطقة غابية مقفرة، تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب

من هيرشنج على بحيرة آمر، حيث توجد فوق المنعطف على مرتفع صغير في الغابة مقبرة أسرة هاوسهوفر. ومع أن كارل لم يكن يرغب أن يكون هناك ما يذكر به، فإنه وجد مثواه الأخير هنا إلى جانب زوجته ووسط أفراد أسرته. ثمة أيضا شاهد قبر يذكر بابنه ألبرشت، شاعر «شمس موابيت» الذي قتله الـ إس إس.

من معتقلي نورنبرج

تفادى كارل هاوسهوفر بموته الشكوى الموجهة ضده كمجرم حرب. ولم تناقش في نورنبرج أهمية الجيوسياسة بالنسبة إلى جرائم هتلر، رغم أنه صدر يوم 18 آب عام 1945 أمر بإلقاء القبض على كارل شميت واستجوابه، وبقي معتقلا طيلة ثلاثة عشر شهرا في برلين، بعد ستة أسابيع أمضاها في الحبس الانفرادي في نورنبرج استجوبه خلالها نائب المدعي العام الأميركي روبرت كمبنر.

عندما افتتحت يوم 20 تشرين الثاني في نورنبرج محاكمة المتهمين الأربعة وعشرين الأساسيين، كان يجلس على كرسي الاتهام أشخاص كثيرون يعرفون نيدرماير. لقد عرفه رودولف هيس، نائب الفوهرر، عندما يسر أمر انتسابه إلى الحزب عام 1933 بتزكية من هاوسهوفر، وساعده عام 1935 في قضية المحاضرة. وعرفه فيلهلم كايتل، رئيس قيادة القوات المسلحة العليا، الذي كان رئيسه وأيده عام 1944 أثناء الشجار مع كيسلرنج. وعرفه ألفريد روزنبرج، نظير الحزب ووزير المناطق الشرقية المحتلة، الذي انتقد عام 1935 محاضرته عن الاتحاد السوفييتي، لكنه تلقى منه فيما بعد خرائط خص بها معرض مؤتمر الحزب الذي عقد عام 1938، وتفاهم معه. وعرفه يوليوس شترايشر، ناشر مجلة «المهاجم» الأسبوعية ومحافظ فرانكن، الذي لعب دور المخلّص بالنسبة إليه، عندما شارك في كتابة مذكرة «السكوت خيانة». وعرف ألفريد يودل، رئيس أركان قيادة القوات المسلحة في القيادة العليا وزميل دراسة شقيقه ريتشارد، الذي رفض مساعدته مطلع عام 1945.

وعرف فرانز فون بابن، السفير السابق في تركيا ونائب المستشار السابق في وزارة هتلر الأولى، الذي قاتل مع نيدرماير على جبهة فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، وتذكر بعد إخلاء سبيله معركة نيدرماير ضد لورانس قرب الطفيلة.

لم يذكر قادة النظام النازي البارزون اسم نيدرماير، بل ذكره رجل من الصف الثاني هو هانس فريتشه، مدير شعبة الإذاعة في وزارة الدعاية التي ترأسها جوبلز، الذي اشتهر خلال الحرب ببرنامجه «هنا يتحدث هانس فريتشه»، الذي جعله رجلا شعبيا[16]. كان فريتشه، المدير الوزاري خلال أيام الحرب الأخيرة، أعلى ممثل مدني لحكومة الرايش في برلين. وقد وقع بصفته هذه عرض استسلام العاصمة، الذي قدم يوم 4 أيار 1945 إلى المارشال جوكوف، كما تعرف على جثتي جوزيف وماجدا جوبلز. وكان اتهامه بارتكاب جرائم حرب خطوة رمزية أريد بها محاسبة الدعاية النازية على إسهامها في سياسة هتلر الإجرامية.

كان فريتشه، ابن الموظف من بوخوم، قوميا ذا نزعة برجوازية محافظة. وقد انتسب إلى الحزب بعد 30 كانون الثاني عام 1933، لكنه كان في العشرينات على علاقة بدوائر قومية محافظة وأوساط ثقافية يمينية، وشارك بصورة منظمة في لقاءات نادي حزيران، الاتحاد الذي ناقش ونشر أفكار مولر فون دير بروكس، وكارل هاوسهوفر، وكارل شميت، وإدجار يونجز. هذا المثقف اليميني المتطرف، صار عام 1938 مدير شعبة «الصحافة الألمانية» في وزارة الرايش للدعاية والإرشاد القومي، وتولى عام 1942 رئاسة شعبة الإذاعة، ليغدو «سيد إذاعة ألمانيا الكبرى». ومع أن محكمة نورنبرج برأته، فإن محكمة ألمانية حكمته بتسعة أعوام أشغال شاقة، لكن عفوا صدر عنه عام 1950.

16. انظر: فيليب جاسرت: هذا هو هانس فريتشه. معهد ألمانيا التاريخي، واشنطن، أيلول 1999.

عرف فريتشه نيدرماير في برلين، والتقاه من جديد عام 1945 في لوبيانكا، مقر الاستخبارات السوفييتية الرئيس المرعب، القائم وسط موسكو. وقد روى فريتشه في إحدى الجلسات الصباحية لمحكمة مجرمي الحرب يوم 28 حزيران عام 1946 عن أحاديثه مع نيدرماير، وشرح المحطات المختلفة، التي أدرك عبرها بعد نهاية الحرب خطوة إثر خطوة بواعث هتلر الإجرامية، وقال إن واحدة من هذه المحطات كان اللقاء مع نيدرماير في زنزانة سجن موسكو: «كانت المحطة الثالثة رفيق معتقل آخر هو الجغرافي المعروف عالميا الجنرال نيدرماير، الذي أثبت لي بالدليل القاطع أن الذريعة التي قدمها هتلر للهجوم على الاتحاد السوفييتي كانت خاطئة، في نقطة مهمة على أقل تقدير هي أن مولوتوف لم يقدم بأي حال من الأحوال مطالب جديدة خلال حديثه عام 1941 مع ريبنتروب، بل اكتفى بالمطالبة بتنفيذ الوعود المقدمة عام 1939. بذلك سقط جزء ـ أؤكد جزء ـ من ذرائع الادعاء النازي بأن هجومنا على روسيا كان استباقا لهجوم روسي علينا».

قال فريتشه ردا على سؤال إضافي حول ما إذا كان نيدرماير حاضرا خلال المداولات بين مولوتوف وريبنتروب: «لم أقل أن الجنرال نيدرماير شارك في هذه المفاوضات، بل قلت إنني قابلت هذا الجنرال في الأسر، وكان قد أمضى أسابيع أو أشهر قبل ذلك في زنزانة أخرى مع المترجم الذي نقل إليه نص الحديث بين مولوتوف وريبنتروب».

تلقت زوجة نيدرماير في تشرين الأول عام 1946 أول معلومات دقيقة عن مصير زوجها، بواسطة هيئة الدفاع عن فريتشه، الذي قدم خارج المحكمة معطيات إضافية حول الأسبوعين اللذين أمضاهما سويا مع نيدرماير، الذي فر في فوضى الحرب من تورغاو إلى كارلسباد، حيث وقع في أيدي الأميركيين، ثم خرج من الأسر لفترة قصيرة وسلم نفسه طواعية إلى السوفييت، الذين اعتقلوه فورا.

سافرت زوجة نيدرماير إلى نورنبرج، حيث تلقت معلومات أخرى من

فريتشه، مع أننا لا ندري إن كان قد روى لها كل شيء أم حجب تفاصيل مؤلمة عنها.

في لوبيانكا

اعتقل نيدرماير في 16 أيار 1945 في كارلسباد، بعد أن سلم نفسه إلى السلطات السوفييتية، ونقل من سجن إلى آخر، فوضع أول الأمر في سجن مكان صغير، نسي فريتشه اسمه، ثم نقل إلى سجن درسدن فسجن بريسلاو، قبل أن ينقل إلى سجن في مكان غير معروف، ويصل إلى سجن كييف، وأخيرا سجن ليفورتوفو في موسكو، حيث حشر في غرفة مطلية بالسواد مع نصف دزينة على الأقل من المعتقلين، بينهم جنرال فون بانفيتز، قائد القوزاق الذين قاتلوا مع الألمان، وينتقل من هناك إلى أقبية وزنزانات التحقيق في لوبيانكا، مقر الاستخبارات السوفييتية الرئيس، حيث التقى فريتشه.

يقول فريتشه حول لقائه المفاجئ مع نيدرماير في الزنزانة رقم 37 من سجن لوبيانكا: «كنت أوائل تموز أتقاسم وخمسة روس إحدى زنزانات لوبيانكا، أُعدم واحد منهم بعد حين رميا بالرصاص. ذات مساء، فتح الباب ودخل شخص بقذالين بيضاوين يخالطهما هنا وهناك بعض شعر أسود، له لحية يبلغ طولها سنتيمتران، وقد ارتدى بدلة مدنية تتدلى عند خصره ويمسك بها كي لا يسقط على الأرض. ومع أنه حيا بالروسية، عرفت من هيئته أنه ليس روسيا. حين سألته إن كان ألمانيا رد بالإيجاب وذكر اسمه. ذكرت اسمي بدوري فعرف كل منا الآخر. مازحته عندئذ قائلا: «يبدو منظرك بهيجا، سيد نيدرماير!»، فأجابني ضاحكا: «لو كان بوسعي وضع مرآة أمامكم، لرأيتم أن الفارق بيننا ليس كبيرا جدا».

لم يكن الضحك والحديث بصوت مرتفع مسموحا في لوبيانكا. لذلك روى نيدرماير بصوت هامس خلال الأيام التالية ما عاشه في الحرب: «أخبرني ما حدث له مع عملاء شرطة الدولة السرية الألمانية في الشرق ومع

مترجم ريبنتروب الروسي». كما شرح البواعث التي دفعته إلى محاولة إقامة صلات سياسية مع الروس: «رغم أنه وجد نفسه في كارلسباد على الجانب الأميركي، فقد ذهب إلى الروس اعتقادا منه بأنه لن يستطيع تحاشى ذلك، خاصة وأن العصر الروسي بدأ في ألمانيا، وأنه ربما كان من المفيد القيام بلفتة طوعية تجاه الروس».

كانت التحقيقات في لوبيانكا رهيبة[17]، فقد سأل مستجوبوه عن رحلاته الدراسية قبل الحرب العالمية الأولى، وعن فترة موسكو بين 1924 و1931، وعن نشاطه في الحرب العالمية الثانية. كان نيدرماير يتلقى طعاما أحسن من طعام فريتشه، عدا ذلك، كانت معاملته أسوأ من معاملة زميله «مع أنه لم يضرب». كان ثمة ماء ساخن في الصباح والمساء، وفي الظهيرة كان يوزع حساء حار مع بعض أوراق الملفوف وقطعة خبز، وبين فينة وأخرى كانوا يأكلون قطعة لحم. أما بعد الظهر، فكان الأسرى يحصلون على قرابة تسعة ملاعق كاشا، وهي معجنات روسية مصنوعة من الدقيق. وكان الأسرى الحليقي الرؤوس يغتسلون مرة كل أربعة عشر يوما ويتلقون قميصا نظيفا.

كان ضابط الاستجواب السوفييتي عقيدا يكثر من شتم وإهانة نيدرماير. وكانت المترجمة لئيمة، تختار دوما الصيغة الأكثر سوءا بالنسبة إليه، رغم أن تهمته الأولى لم تكن قيادة الفرقة 162 ـ التركية، بل قيامه بنشاط سابق لصالح جيش الرايش. كما زعم المحقق أن رحلة نيدرماير الأولى إلى فارس كانت مهمة تجسسية قام بها لصالح الاستخبارات العسكرية الألمانية. واتهمه، إلى ذلك، بالقيام برحلة مغامرات خلال الحرب العالمية الأولى.

كانت مهمة نيدرماير لصالح جيش الرايش مشبوهة على نحو خاص في نظر المحققين السوفييت، وكان مطلوبا منه أن يعترف باستغلال الروس والتجسس عليهم. كتبت زوجة نيدرماير إلى أصدقاء زوجها: «كان هذا،

17. هانس فريتشه: هنا يتحدث هانس فريتشه. ص 96.

لأسباب مفهومة، أكثر ما سبب الألم لزوجي، الذي كان يدعو في ذلك الوقت بالذات إلى التعاون بقلب شريف مع الروس، ويؤيد العلاقات معهم حيثما استطاع»[18]. وقد قال فون هانتيج، الذي بقي مهتما بمصير منافسه، في رسالة كتبها يوم 20 حزيران 1957 إلى رئيس أركان الجيش الألماني فرانس هالدر: «إن نيدرماير كان في نظر الروس مركز ارتباط منظمة جاسوسية واسعة الانتشار»، فأوصل هالدر الرسالة إلى الجهات الرسمية الأميركية المختصة[19].

الموت في فلاديمير

كان نيدرماير يمارس التمارين الرياضية في زنزانته خلال الفترة التي أمضاها في لوبيانكا. لقد أراد المحافظة على لياقته الجسدية وقدراته العقلية والفكرية. يقول فريتشه: «بسبب الافتقار إلى أي نوع من الأشغال، صنع أوسكار من الخبز غلايين ومباسم سجائر للدخان القليل، الذي كنا نتلقاه، أو صنع أحجار شطرنج عامرة بالخيال. أما رقعة الشطرنج فكانت موجودة بمحض الصدفة». علم نيدرماير فريتشه الأحرف الهجائية الروسية، ودأب على رفع معنويات زملائه في المعتقل: «كان يساعدني في الأوضاع الحرجة بإعطائي الخبز ونصائح جيدة ووصفات ضد الجنون المتربص دوما بالمعتقلين في زنزاناتهم الإفرادية». فضلا عن فريتشه، أقام نيدرماير خلال اعتقاله في لوبيانكا صلات شخص آخر من معارفه القدماء هو فريتز جروبا، الذي وقع بدوره في الأسر السوفييتي، وخضع للاستجواب في لوبيانكا خلال الفترة ذاتها التي تم فيها التحقيق مع نيدرماير. وقد نجح الإثنان في إقامة صلة بينهما في المراحيض، بواسطة الطرق على الجدران.

أعيد نيدرماير في النصف الثاني من آب عام 1945 من لوبيانكا إلى

18. ملاحظة أبدتها السيدة نيدرماير بمناسبة حديثها مع فريتشه في نورنبرج.
19. هذه الرسالة جزء من تركة هانتيج في الأرشيف القومي، م ـ ب 207.

سجن ليفورتوفو. لا شك في أنه قوَّم رد الفعل السوفييتي على استسلامه بطريقة خاطئة. عندما ترك لوبيانكا، كانت الاستجوابات قد تركت آثارها عليه. يقول فريتشه: «كان جسد الباحث، الذي فولذته الحرمانات والمشقات، يحمل الآن ندوبا عميقة». لقد ساقت نيدرماير أوهامه في أيار من عام 1945 إلى الشرق، الذي كان عاجزا عن مقاومة إغرائه فسقط ضحيته. تقول زوجة نيدرماير بعد حديثها مع فريتشه: «كنت مضطربة إلى درجة أنني احتجت إلى وقت طويل كي أستعيد بعض هدوئي».

أصدرت محكمة سوفييتية خاصة يوم 10 تموز عام 1948 الحكم بسجن نيدرماير خمسة وعشرين عاما. ليس هناك معلومات موثوقة حول سنوات حبسه الثلاث الأخيرة. لكن عائدا متأخرا من الأسر الروسي هو كورت لاندفير، أخبر في تشرين الثاني من عام 1955 فريتز نيدرماير بما يعرفه عن أيام أخيه أوسكار الأخيرة: «أصيب الجنرال بالسل خلال وجودنا في سجن زنزانات موسكوفي (1945 ـ 1948). وبعد الحكم بالسجن الذي صدر عليه، نقل في حالة يرثى لها إلى سجن فلاديمير (على بعد مائتي كيلومتر إلى الشرق من موسكو)، ومنه إلى المشفى بعد أيام ثلاثة. منذ تلك اللحظة، لم يعرف أحد شيئا عنه».

يقول إشعار صدر بتاريخ 28 شباط 1997 عن الادعاء العام الرئيس للاتحاد الروسي أنه تم رد الاعتبار إلى الجنرال الأستاذ الدكتور أوسكار ريتر فون نيدرماير، طبقا للمادة الثالثة من قانون الاتحاد الروسي حول «رد الاعتبار لضحايا الاضطهاد السياسي»، وألغي الحكم الذي صدر ضده. يعلن الإشعار أن نيدرماير فارق الحياة يوم 25 أيلول عام 1948، وأنه لا يعرف له قبر[20].

20. انظر إشعار رد الاعتبار في الوثائق المختارة.